الطبيعة في الشعر المغربي القديم

الأستاذة : ابن مداح شميسة

جامعة تلمسان-الجزائر

تتناول هذه البحث فنّا رائعا من فنون الشعر المغربي، أبدع فيه الشعراء القول، وأجادوا فيه الصياغة حتى أصبح اتجاها قائما بنفسه، وفنّا مستقلا بذاته.فلد استرعت مظاهر الطبيعة المختلفة انتباه الشاعر المغربي، فراح يصفها معجبا أو متأثرا، ولعلّ ما مال إلى وصفه أكثر هو ما كان له صلة وثيقة بحياته، ولا غرو في ذلك فقد وجد الطبيعة خير جليس وأحسن أنيس، فجعلها مرتعا لخياله ومقيلا لأفكاره، وكانت وحي استلهامه، تسكره باهتزاز أزهارها، وانسياب جداولها، وتلألؤ طلّها وهدوء ظلّها، فيجود بالكلم الخالد واللوحة الناطقة. وممّا هو قمين بالتسجيل أيضا أنّ هذا الفنّ قد تحيّفه بعض القوم، فأغفلوا ذكره، وهذا ما دفعنا إلى أن نكون بهذا الشعر أحفياء، وبهذا النوع - بخاصة – أوفياء.

Résumé :Le présent travail la nature de la poésie maghrébine ancienne. A travers la poésie, les poètes les poètes maghrébins se sont intéressés à tout ce qui est relatif à ce genre littéraire entre autres la description, la galanterie, le compliment, la sitire et l'attendrissement.

ممّا لا يتنازع فيه اثنان أنّ المغاربة قد خاضوا عباب بحر الشعر، وطرقوا كلّ باب من أبوابه، فأجادوا الوصف والغزل والمدح والهجاء والرثاء، وضربوا الحكم والأمثال، ودوّنوا الأخبار، وقد انساق الشاعر في كلّ ذلك بسائقة الطبيعة التي تأسر الطرف، وتستهوي الأفئدة، وتستثير المشاهد والعواطف، وتستصبي الخيال حيث كان يهيم في كلّ محسوس بين يديه، ويفكر في كلّ منظور أمام عينيه، وشعور يختلج في صدره وصورة مرسومة في مخيّلته منعكسة عن طرق معيشته وفطرته.

فالطبيعة كأمّ لكلّ الفنون تتكامل فيها الحركة المرئية والحركة السمعية، وحينما يتحدث الإنسان مع الطبيعة، وتتكامل فيه عناصر الحياة بثقافتها البصرية والسمعية عندما يتم ذلك فإنّ الإنسان يتمكن من الرؤية حتى وهو كفيف ومن السمع حتى وهو أصّم.

والحق إنّ شعر الطبيعة عرف بدايته على أيدي الشعراء الجاهليين والعباسيين ثم الأندلسيين الذين فاقوا المشارقة في وصف مظاهر الطبيعة كمّا وكيفا، كما أنهم كانوا فيه أكثر براعة وابتكارا وتجديدا ودقّة وتصويرا، ومن هنا فإنّنا لا نثرّب الشعر المغربي بدعوى النقصان والتقصير في هذا المجال.

فقد منح الله المغرب العربي طبيعة فتانة كانت من أغنى بقاع الأرض منظرا، وأوفرها جمالا ترتفع فيها الجبال الخضراء، وتمتد في بطاحها السهول الواسعة، وتجري بها الجداول

والأنهار وتغرد على أفنان أشجارها العنادل والأطيار، وتنساب الماشية والأنعام في مراعيها الجميلة، ويعطر النسيم جوها المعتدل، وبساتينها المشرقة، وقد تحدث عن جمالها كلّ من هام بها.

وكان من أثر جمال طبيعة المغرب أن شغفت بها القلوب، واهتزت لها النفوس، فأقبلوا يمعنون النظر في خمائلها، ويستمتعون ما شاء لهم الاستمتاع، فراح الشعراء ينظمون كلامهم دررا في وصف رياضها، ومباهج جنانها بعد أن فتقت في نفوسهم قول الشعر، وجعلتهم يرون فيها جنة الخلد بمائها وظلها وأنهارها وأشجارها. مما يوحي بأنّ هذا الفن الشعري قد تحيّفه بعض القوم فأغفلوا ذكره، وهذا ما دفعنا أن نكون بهذا الشعر أحفياء، وبهذا النوع- بخاصة- أوفياء.

وهناك ملاحظة جديرة بأن نومئ إليها وهي: «أنّ النقاد والدّارسين لم يواكبوا المبدعين في هذا المضمار، ولم نقرأ إلا دراسات قليلة تعدّ على الأصابع، بل لعلنا لا نبالغ إذا زعمنا بانّ كتاب "سيد نوفل" ظلّ وحده مرجعا بل مصدرا مهمّا لسنوات غرف منه معظم من أقبلوا على شعر الطبيعة يبحثون فيه، على عكس الغربيين الذين أولوا لهذا الفن عناية بالغة حتى صار على عكس الدراسات الغربية متعذرا أن تحصى المظان التي عنيت بهذا الفن عندهم».[1]

وقبل أن نستشهد بما أبدعه الشعراء المغاربة في هذا الفن علينا أن نلخص ما تحتويه الطبيعة من مناظر، وما تشتمل عليه من موضوعات وأنواع وأقسام فمنها ما هو نام «وما هو ميت كالأرض بنباتها وأشجارها وينابيعها وأنهارها وصخورها ورمالها، وما هو جار كالبحار والأنهار، وما هو خاص بالجوّ وما ينشأ عنه ويتولد من شتاء وربيع وصيف وخريف، ويدخل تحت النوع ما له علاقة بالسماء والقمر والدجى والسراب... وما هو خاص بالحيوان مفترسا كان مثل الأسد والثعلب والذئب أم غير مفترس كالظبي، وبقر الوحش أو أليفا مثل الإبل والخيل والقطط والدجاج».[2]

وممّا هو قمين بالتسجيل أيضا أنّ شعر الطبيعة عند هؤلاء الشعراء لم ينح منحى موحدا، بل لقد تشعب التناول، وتنوّع التعبير فيه «فجاء مزدوجا ما بين الخمرة والمرأة والطبيعة أحيانا، أو منصرفا إلى الورود ومظاهر الربيع بصورة عامة، أو واصفا لمظاهر العمران كالقصور والناعورات وغيرهما أو محددا لأصناف الرياحين والزهور، أو مستعرضا لألوان من الفاكهة اللذيذة مثل التفاح والبرتقال والمشمش».[3]

وليس ثمة شك أنّ شعر الطبيعة هو ذاك الشعر الذي موضوعه عالم الطبيعة، تلك الطبيعة صالحة كلّ الصلاحية لأن تكون موضوعا للشعر، وشعراء الطبيعة يختلفون اختلافا كبيرا في طريقة التناول. «فالطبيعة يمكن أن تتناول بالطريقة الواقعية فتوصف المظاهر كما هي في الحياة، أو بالطريقة المثالية الكمالية، وهي تقتضي تكميل ما في الطبيعة بواسطة الخيال، والشاعر في تناوله الطبيعة ليس ملزما بنوع شعري واحد، قد يتناولها في الشعر القصصي، او الشعر التمثيلي، وقد يتناولها في الشعر الغنائي، لأنّ الطبيعة حين تجتذب انتباه الشاعر تثير فيه روحا من التقدير يتحوّل إلى حب، ولذلك يتناولها في شعر غنائي لأنه هو الذي يعبّر عن الحب، والشاعر الغنائي عادة شاعر تلميح وإيماء بطبيعة صنعته، ولذلك يعيش شاعر الطبيعة في عالم من الإيماء والتلميح».[4]

لقد استرعت مظاهر الطبيعة المختلفة انتباه الشاعر المغربي، فراح يصفها معجبا أو متأثرا، ولعلّ ما مال إلى وصفه أكثر هو ما كان له صلة وثيقة بحياته، ولا غرو في ذلك، فقد وجد الطبيعة خير جليس وأحسن أنيس، فجعلها مرتعا لخياله، ومقيلا لأفكاره، وكانت وحي استلهامه تسكره باهتزاز أزهارها، وانسياب جداولها، وتلألؤ طلها، وهدوء ظلها، فيجود بالكلم الخالد، واللوحة الناطقة.

والأهم أنّنا ألفينا بعض النصوص التي تهزّ المشاعر النائمة، وتوقظ العواطف الخاملة، ومن ذلكم ما يذكره "أبو الربيع سليمان":[5]الذي كان يهوى الجمال، ويهيم شغفا بالطبيعة، حتى لكأنّ كنيته دليل على ذلك.

قال يصف- وردة- [الكامل]

خُذْها إليك كَوَجْنَةِ العذراء من غيْر ما خَجَلٍ وغيْر حَيَاءِ
عَطْرِيَّةَ الأنفاس يملأ عَرْفُها مُتَنَشَقَ النُدَمَاءِ والجُلَسَاءِ
نثر السحاب لآلئا منه على أوراقها لكنّها من ماء
وكأنّما رَقَم الندى أوراقها رقم الحُباب غلالة الصّهباء
ثم التأمن فرائدا في صَحْنِهَا فكأنّها خذاك غِبَّ بُكاء[6]

فقد جاءت هذه المقطوعة لتثير الوجدان وتحرّك الشعور، لأنّ التغني بالورد من أعذب الخطاب وأحلاه، ولاسيما الخطاب الشعري، ولكن المستقطب للانتباه أنّ الخطاب الموّجه لوصف الورد يكاد يعدّ على الأصابع، فالشاعر "أبو الربيع سليمان" رهيف الحس، قد انجذب إزاء جمال بهره، وبهاء قهره، فكشف عن بعض ذلك في هذه اللوحة الفنية التي لم تعد أبياتا خمسة، ولكنها قد تشفي العليل وتروي الغليل -على حدّ تعبير أستاذي الجليل الدكتور "محمد

مرتاض"- بعدما عبّق في تصورها رحيقه، إذ وصفها على أنّها وجنة العذراء التي سرعان ما تتورد حياء، وتحمرّ خجلا، فهذه الوردة قد ملأت الأفق نضارة، والجوّ عطرا، وازدادت صورتها إشراقة، وتمايلت أناقة حينما داعبها السحاب بقطراته الندية كي تنعكس على أوراقها الرقيقة الرقراقة متألقة كما لو كانت جواهر ولآلئ منثورة، مستعينا في تصويره بالجمال الفني الذي عدّه وسيلة الطبيعة لحفظ الحياة، وبقاء النوع، تجمع به ما تشتت، وتؤلف به ما نفر، وهو بعد ذلك سرور النفس، ونور القلب، وسلام الروح فمن تمتع بالجمال في صوره الحسية والمعنوية كان له في كلّ زمان شباب، وفي كلّ مكان ربيع.

وهذا ابن حمديس (ت 527هـ) نفسه ينبري لوصف الطبيعة، مبدعا في تصوير الأبنية والتماثيل والقصور والنوافير والنواعير والحدائق، إذ اتصل الشاعر بالمنصور بن أعلى الناس- أمير بجاية- وتصدّر عنده مقدمة الوصافين البارعين، وتألق في وصف القصور المشيّدة على عهده وما تحويه من جميل الصور وعجيب المشاهد، إذ يقول [الكامل]:

أعمر بقصر الملك ناديك الذي أضحى بمجدك بيتا معمورا
قصر لو أنّك كحّلت بنوره أعمى لعاد إلى المقام بصيرا.[7]

فالبيتان هما من رائيته التي نظمها في وصف قصر "المنصور"، وقد استهلها بفعل الأمر "أعمر" مقدما التهاني للأمير "المنصور"على حوزته هذا القصر الفخم، الضخم.

وينتقل الشاعر مباشرة إلى ذكر مكانة القصر رافعا شأنه أمام قصور بني ساسان: الخورنق والسدير والإيوان.

والواقع أنّ "ابن حمديس" واسع الثقافة في مجال القصور، لأنّه عاش فترة شبابه في الأندلس ثم انتقل بعدها إلى أماكن عدّة قبل أن ترسو له قدم في المغرب الأوسط، ولعله زار خلال أسفاره قصور بني ساسان ليستطيع بعد ذلك أن يقول [الكامل]:

نسيّ الصبيح مع المليح باسمه وسما ففاق خورنقا وسديرا
ولو أنّ بالإيوان قوبل حسنه ما كان شيئا عنده مذكورا
أعيت مطالعه على الفرس الأولى رفعوا البناء وأحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا لملوكهم له شبيها ونظيرا[8]

ولعلّ ما يسترعي الانتباه هو أنّ "ابن حمديس" قد سار على خطى البحتري في وصف القصور والبرك، وسعى وراء التشبيهات والاستعارات يتصيدها بأحاسيسه، وقد حاكاه في ذلك "ابن خفاجة"، مقتفيا آفة الشعراء في سيرهم وراء بعضهم كالقوافل على الطرق المعبّدة.[9]

ويستمر الشاعر في وصف كلّ شيء في القصر تقع عليه عينه، مصورا لوحة فنية لبركة القصر وما يحيط بها من تماثيل مرمرية المادة، ذهبية اللون لأسود يخرج الماء من أفواهها صافيا لامعا كأنه الفضة الذائبة، منصبّا في البركة التي يلعب النسيم بسطحها، صانعا ما يشبه الحلقات بظهر مياهها، إذ يقول [الكامل]:

وضراغم سكنت عرين رئاسة تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشي النضار جسومها وأذاب في أفواهها البلّلورا
أسد كأنّ سكونها متحرك في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها ، فكأنّما أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها نارا وألسنها اللواحس نورا
فكأنّما سلّت سيوف جداول ذابت بلا نار فعدّت غديرا
وكأنّما نسج النسيم لمائه درعا فقدّر سردها تقديرا[10]

إنّ موقف الشاعر في هذا المشهد موقف المدرك للمَشَاهد، الحاكي للمناظر، المخبر عن دقائقها وسحر جمالها، فقد أضفى الشاعر على هذه اللوحة الفنية روعة الخيال، وصوّرها بثوب من الجمال متقصيا أجزاء كلّ صورة، ومنسقا ألوانها، باثا الحركة في أوصالها كأنّه فنان مبدع.

إنّها أسد ساكنة جامدة، ولكن يخيّل لمن يراها أنّ لها القدرة على الحركة لو وجدت من يستثيرها لذلك وكأنّها تذكرت طبيعتها الوحشية، فقعدت على مؤخرتها متأهبة للوثوب، مستعدة للهجوم، وإنّك حين ترنو إليها تحت ضوء الشمس تصاب بدهشة كبيرة حيث يبدو لعينيك أنها ديجور، وأنّ ألسنتها من الماء نور، وذلك الماء الصافي المتدفق من أفواهها المندفع نحو البركة يشبه سيوفا سلّت من الأغماد ذائبة من دون أن تمسها النار، وقد تجمع ذوبانها فتحوّل غديرا ثم إنّ هبوب النسيم على تلك البركة يحدث في سطح مائها تجاعيد تشبه حلقات الدرع، فكأنّ النسيم نسج لماء تلك البركة درعا أحكم نسجه، وأتقن صنعه.

وينتقل "ابن حمديس" بعد ذلك- ومن القصيدة نفسها- إلى التقاط صورة أخرى جديرة بالتوقف عندها، مصوّرا الحديقة، متغنّيا بالشجرة، ممجّدا رسالتها، وأثرها على الطبيعة الحيّة والصامتة بعامة، إذ يقول: [الكامل]:

وبيعة الثمرات تعبر نحوها عيناي بحر عجائب مسجورا[11]
شجريّة ذهبية نزعت إلى سحر يؤثر في النهى تأثيرا
قد سرجت أغصانها فكأنما قبضت بهن من الفضاء طيورا

وكأنّما تأبى لوقع طيرها أن تستقلّ بنهضها، وتطيرا[12]

عندما نتأمل هذه الأبيات ندرك أنها آية في الإبداع، فالشاعر لا يقف عند حدود التصوير الخارجي بل يصف إحساسه وشعوره إزاء ما يصف، فهو يشرك عينيه وقلبه في وصف ما يريد، فهذه الأشجار الذهبية اللون، بديعة الثمر، تبهر الأنظار، وتسحر العقول، تعبّق الأنحاء الحافة بها عطرا وشذى كلما هدهدتها الرياح ومستها الأنسمة، فتعبّر عن ذلك راقصة مترنّحة وتبعث إلى القاصي والداني ريح عطرها وقطر نداها.

وممّا يزيد من روعة تلك الحديقة أنّ أشجارها قد علقت بها مصابيح على هيئة طيور تخيّل لمن يراها أنّ الأغصان قد قبضت على تلك الطيور ومنعتها من الطيران لتنعم بتغريدها الحلو وشذوها الجميل قائلا: [الكامل]:

من كلّ واقعة ترى منقارها ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعدّ من الفصاح فإن شدّتْ جعلت تغرّد بالمياه صفيرا
وكأنّما في كلّ غصن فضة لانت فأرسل خيطُها مَجْرورا
وتريك في الصّهريج موقع قطرها فوق الزبرجد لُؤلُؤا منثورا
ضحكتْ محاسنه إليك كأنَّمَا جُعلتْ لها زهْر النجوم ثغورا[13]

وتتوالى الصور متناسقة متناثرة، حينما يسند إلى الطيور أفواها يندفع منها ماء صاف كأنّه لجين مذاب، ولهذا الماء صفير يشبه التغريد، وهذا الأمر يجعل الإنسان يظن أنّ تلك التماثيل طيور حقيقية ناطقة، وذلك الماء المنصب بين غصون الشجر يشبه خيوطا أو أسلاكا فضية تسقط على أحواض الزرع الأخضر فتبدو قطرات الماء كأنها لؤلؤ منثور، فتضفي على الزرع بهاء ورواء، وتلك القطرات اللامعة تبرز كأنها نجوم زاهية تصنع ثغور الزرع الباسم الجميل.

وينتهي "ابن حمديس" في آخر القصيدة كما استهلها بمخاطبة الأمير الحمادي "المنصور" في تواضع ووقار بإهدائه هذه القصيدة التي تنمّ عن مدى إعجابه بالقصر وتصاميمه الفريدة التي انبهر بها الشاعر.

وما يلفت الانتباه أيضا أنّ هدوء القصر قد وفر للشاعر جوا من الراحة النفسية التي انعكست على هذه القصيدة، إذ نلمس فيها إلى جانب قيمتها الفنية، قيمة تاريخية بارزة كونها تؤرخ لفن العمران على عهد الحمَّاديين، وتبرز لنا طريقتهم الخاصة في النقش على الخشب، ونحت التماثيل، وما إلى ذلك ممّا تزخر به قصور الأمراء والملوك بخاصة.

ويجدر بنا أن نقف هنا وقفة نؤكد فيها من جديد أنّ حضور الطبيعة في قصائد "ابن حمديس" يفسر أنّ البيئة الحضرية التي احتوت الشاعر قد جعلت من أشعاره لوحات فنية مرصعة بأنواع الدر والياقوت والمرمر، وهذه هي: «مجاملة الترف الخالي من كلّ بصيرة إنسانية باطنة على حساب البداوة أو الفطرة الساذجة التي تحتضن فيها النفس أهون المخلوقات، وتشبّع حنينها الدائم إلى التنصّل من وثائق البريق المتوهّج النافع، وشواهد الحضارة المادية، ولوازم الترف الثقيل الذي يخلط بين المعايير».[14]

إنّ هذا الاستقراء يؤكد لنا أنّ شعر "ابن حمديس" مرآة صافية تجلّت فيها قدرته الأدبية، «فهو عفيف اللفظ، نبيل الفكرة، لغته واضحة، وأسلوبه مشرق، إذ تألق في وصف جمال الطبيعة ولذات الحياة، وعجائب الكون، فوصف النهر والزهر، والصيد والخيل والليل، وقصور الترف، ومجالس الطرب، وكلّ ذلك يرسمه بلفظ أنيق وتصوير دقيق وعبارة بيّنة».[15]

وحتى نوفي هذا البحث حقه من النماذج في وصف الطبيعة، نرصّعه بنموذج آخر مخالفا لما درسناه حتى الآن، والذي يتمثل في وصف العشايا وجلسات السمر، حيث قرطس في هذا النوع الشاعر الفقيه "التجاني" وسنورد مشهدا يصف فيه إحدى عشاياه "بقابس" وما اقتضته بها من الأنس والراحة، يقول: [الكامل]:

أذكر عشيّتنا بساحة عنبر والجوّ يتحفنا بنكهة عنبر
حيث النخيل عرائس نسج الحيا بسطا لها من أخضر أو أصفر
والشمس تستحي فتستر وجهها عنا بستر للعروس محبّر
والنور بين مفضض ومذهب والنور بين مدرهم ومدنّر
والنهر والغدر اطرحا تحصّنا إذا صفّت الغابات صفّ معسكر
والبحر يرمقها بمقلة أزرق والبرّ يرمقها بمقلة أعفر
في جنّة لو نلت خلدا بها قصدي بلغت إلى النعيم الأكبر[16]

هذه الأبيات لوحة فنية رائعة عبّر فيها الشاعر عن تجربة حيّة مرّ بها، وقد اقتصر في وصفه على ظواهر الفتنة والجمال، مصوّرا عشية من عشايا السّمر بقابس- تحديدا بساحة عنبر- حيث انتشى بالجلسة وذاب في حديث اللهو واللذة، متذكرا أيام الوصال، «وإنّ الحديث عن وصف الملذات والتعبير عن الذكريات يكاد يكون معدودا على الأصابع إذا ما استثنينا "امرأ القيس" في دارة جلجل الشهيرة».[17]

لقد توفرت للشاعر كلّ أسباب الراحة والأنس، فهذه النخيل متفرعة والجرارة معتدلة، والشمس كأنها غادة حسناء تستحي لتستر وجهها بوشاح منمّق جميل، تلك الأرض المرصّعة

بالزهر الأبيض كأنه لجين لشدة بياضه، وذاك الزهر الأصفر الفاقع اللون كأنه التبر في التلألؤ واللمعان، ويستمر الشاعر في تصويره حيث يشبّه البحر بالبازي في حدّة نظرته وزرقة لونه بينما يجعل البر شبيها بنظرة ظبية فاترة حوراء هادئة بروعة الجوّ وطبيعة السكون السائد.

وخلص الشاعر إلى الانتشاء والتأثر حيث تخيّل نفسه في جنة تمنى ألا يخرج منها أبدا حتى ولو خيّر بينها وبين جنة الخلد في الدار الأخرى.

وما يهمّنا أكثر أنّ هذا النوع من الخطاب محبّب إلى النفس لكون المتلقي يقبل عليه في توق وشغف، والسرّ في ذلك يكمن في أنّ «مثل هذه القصائد هي نوع من الاعتراف الذاتي، والاعترافات كانت ومازالت تجذب القراء إليها بسبب ما تحمله من إشارات تكون أقرب إلى الحقائق غالبا».[18]

ونظلّ في هذا الجوّ الذي تغمره روعة التصوير والجمال مع شاعر آخر والذي امتاز شعره بالرّقة والحسن خاصة في وصف الطبيعة وذكر جمالها- ابن أبي الحسن بن الفكون"القسنطيني (ت. أوائل القرن السابع الهجري/ 13م)، [19] ومن شعره هذه المقطوعة التي يصف فيها مدينة بجاية (الناصرية) وطبيعتها حيث يقول:[من البسيط]:

دع العراق وبغداد وشامهما فالناصرية ما إن مثلها بلد
برّ وبحر وموج للعيون به مسارح بان عنها الهمّ والنكد
حيث الهوى والهواء الطلق مجتمع حيث الغنى المنى والعيشة الرغد
إن تنظر البرّ فالأزهار يانعة أو تنظر البحر فالأمواج تطرد
يا طالبا وصفها إن كنت ذا نصف قل جنّة الخلد فيها الأهل والولد[20]

وينتقل "ابن الفكون" من وصف مدينة بجاية إلى وصف قصر (الربيع) أو (الرفيع)[21] بخلاف بين الباء والفاء وهو أحد قصور بجاية، مازجا هذا الوصف بمدح الوليّ حيث يقول: [من الطويل]:

عشونا إلى نار الربيع وإنّما عشونا إلى نار الندى والمحلق
ركبنا بواديه جيادا وزوارق نزلنا إليها عن ضوامر سبق
ولمّا نزلنا ساحة القصر راعنا **بكلّ جمال مبهج الطرف مرتق**
فما شئت من ظلّ وريف وجدول وروض متى تلمم به الريح يعبق
وشادي معافي الحسن في نغماته يطارحه هدر الحمام المطوّق[22]

لقد قصد الشاعر قصر الربيع بواسطة الزوارق بعد أن وصل هو وأصحابه إلى الوادي عن طريق جياد ضمّر، فأصيب بدهشة كبرى من روعة المنظر وجمال المكان، ومدى شساعة فضائه، والرياض العبقة التي تحفّ به، وهديل الحمام الذي يبعث فيه الأنس والرّقة، والماء الجاري بين بركه وحماماته، والذي زاد إعجاب الشاعر بهذا القصر سحر منظره، وعبق طيبه، ممّا نجم عنه أيام للقصف وهصر للملذات إلى درجة أنّ الرجال قد خلعوا نسكهم بغية النعيم بالطيبات والمسّرات، فيقول: [الطويل]:

فيا حسن ذاك القصر لازال أهلا ويا طيب ريّا نشره المتنشّق
رتعنا به في روضة الأنس بعدما هصرنا به غصن المسرّة مورق
ويضحكنا طول الوصال وربّما يمرّ على الأوهام ذكر التفرّق
لمثله من منزّه ونزاهة يجرّر ذيل الذلّ كلّ موفّق
فلله ساعات مضين صوالح علينّ من رقّ الصّبا أيّ رونق
خلعنا عليها النسك إلا أقلّه وإن عاودت نخلع عليها الذي بقي[23]

إذا أمعنا النظر إلى ما اشتمل عليه هذا المشهد يمكن القول أنّ الشاعر قد ركّز على تخيّلات وقضايا نفسية وإيحائية أكثر من تركيزه على الوصف المادي الذي قد لا يسهم في إبراز جمالية النص، بل قد عبّر "ابن الفكون" عن موقفه النفسي إزاء العالم الخارجي، فرحا به، مندهشا أمام بساطه العجيب، مأخوذا بتقلباته يضمّه بروحه، ويأسره بين يديه، ويغمره في أحضانه، وكأنّ شعره نوع من النجوى، أو هو نوع من التأمل الذي يبدع في إطار النفس ما شخص في إطار الطبيعة، فيصف كلّ شيء على أنّه مظهر من مظاهر الحياة والجمال، فقد عبّق نصّه هذا، بشذى الزهور، وهديل الحمام، والرياض العطرة، والجداول الرقراقة، إذ كان للصور البيانية القدح المعلى في هذا المشهد الأخير، غير أنّه يلاحظ على هذه الصور أنها لم تكن جديدة مبتكرة بل إنّ بصمات "ابن زيدون" ظاهرة جليّة في كثير من ألفاظ النص، وربّما السر في ذلك يتمثل في أنّ الشاعر "ابن الفكون" لم يندب ماضيا، وإنّما وصف حاضرا، وخلّد جمالا فانشغل عن الوصف العمراني بجمال المكان، لذلك أغفل الحديث عن الناحية الهندسية والتصميمية، فكان من الطبيعي أن ترتدي أفكاره وخواطره ومشاعره رداء المادة.

ونذيّل هذا البحث بقصيدة "لابن رشيق المسيلي"[24] الذي وإن اشتهر بنظرياته النقدية، فإنّ شعره لا يقلّ تقديرا ولا شهرة، فقد ذاب الشاعر "ابن رشيق" في الطبيعة ذوبانا حيث أضفى عليها من الصور ما جعلها ترتقي إلى الحسّ والتجسيد، فصرّح لها عن خلجات نفسه،

وعبّر عمّا شعر به لمجرد رؤية إحدى الظواهر، ومن بديع وصفه قوله متحدثا عن البرق، يقول: [من الطويل]:

أرى بارقا بالأبرق[25] الفرد يومض يذهّب ما بين الدّجى ويفضّض
كأن سليمى من أعاليه أشرقت تمدّ لنا كفّا خضيبا وتقبض
إذا ما توالى ومضه نفض الدجى له صبغة المسود أوكاد ينفض
أرقت له والقلب يهفو هفوة على أنّه منه أحرّ وأومض
وبتّ أداريالشوق والشوق مقبل عليّ وأدعو الصبر، والصبر معرض
وأستنجد الدمع الأبي على الأسى فتنجدني منه جداول فيّض
وأعذر قلبا لا يزال يروعه سنا النهار مهما لاح، والبرق يومض[26]

لقد كان الوصف في هذا المشهد فنيا لا تقريريا فهو غنيّ بمختلف الصور البيانية التي تسمو بالأسلوب إلى مداليل إيحائية بعيدة عن المباشرة، فقد عمد الباث إلى إبراز القضايا التي أراد التعبير عنها بواسطة الأدوات والأوجه البلاغية كالتشبيه والاستعارة والكناية والرمز، حيث ألبس البرق لبوس الحياة، وأضفى عليه الأنسنة، فجعله يحسّ ويشعر، كما لو كان إنسانا يعي ويسمع، إذ أنّ دموع السحب ووميض البرق قد أسهم في نشر جداول فيّاضة، وقد استعان الشاعر في ذلك بالحوار الداخلي الناتج عن التنويع في الضمائر، والتنميق في إيراد الصور البيانية المختلفة، جاعلا من الجماد حركة، ومن الصورة حياة، ومن المشهد استجابة.

إنّ خيال "ابن رشيق" فرس جامح لا حدود لها فهو يسمو إلى منازل القمر، ومواطئ النجوم ملاحقا أفكاره، وهي محلقة هائمة، فيصف الطبيعة عند مطلع الفجر قائلا: [الرجز]:

فاختلطت فيه فصارت فجرا[27]
ضمّ إلى الشرق النجوم الزهرا
كأنّما الصبح الذي تفرّا

ويقول في وصف هلال رمضان: [الخفيف]:

لاح لي حاجب الهلال عشيّا فتمنّيت أنّني من سحاب
قلت له أهلا وليس أهلا لما قلـ ـت ولكن أسمعتها أصحابي
مظهرا حبه وعندي بغض لعدوّ الكؤوس والأكواب[28]

تعكس هذه الأبيات الوجهة المتناقصة في نفس الشاعر، إذ ينظر للهلال نظرة تأملية ويتمنى أن يكون بقربه كسحابة، ومن جهة أخرى يظهر بغضه له لامتناعه عن شرب الخمر المحبّبة لديه.

كما أخذت الأزهار والفواكه نصيبها في كلامهم، فأجادوا في تصويرها، من مثل قول "ابن رشيق" في البنفسج [البسيط]:

بنفسج جاءك في حين لا حرّ يرى فيه ولا فرط برد[29]

وقوله في الموز: [المجتث]:

لله موز لذيذ يعيذه المستعيذ
فواكه وشراب به يفيق الوقيذ[30]

"فابن رشيق" يَظْهَر من خلال هذه النماذج الشعرية وصافا حاذقا، وفنّانا بارعا يعدّ من طراز الشعراء الممتازين بقوة الخيال، ودقة الوصف والتصوير، فقد استعان بمظاهر الطبيعة المختلفة ليصوغ منها تجربته الشعرية، ويبدع في إنشاء القصيدة، فاتخذ من الماء والبحر والرياض والأشجار والأزهار والفواكه والحيوان... لبنات عمله الفني، لكون الطبيعة كتابا عجيبا ما لصفحاته عدّ، ولا لصوره ومواده حصر.

ولا غرو أنّ الذي يتصدى لنقد الشعر والشعراء لابدّ أن يكون له حظ وافر من الشاعرية والذوق الفنّي، فهو « في وصفه رائع الابتكار، واقعي الملاحظة، دقيق الأداء، شديد الاعتماد على أساليب البيان والبديع».[31]

وبعد، فهذا غيض من فيض، حاولنا من خلاله استعراض جوانب من وصف الطبيعة بمختلف أشكالها وألوانها حيث إنّ الشعراء المغاربة أبدعوا وابتكروا أحيانا في وصفهم للموضوعات التي اختاروها، أو حذوا حذو سابقيهم في مجال الصور خاصة، و«إنّ هذا الفنّ العربي، وإن كان له عصر نهض فيه، واتسعت موضوعاته خلاله، فإنّه ظلّ وثيق الصلة بالماضي، يتطور بقدر، ويأخذ منه كلّ عصر بحظ».[32]

والملاحظ أنّ وصف الطبيعة احتلّ مكانة بارزة عند شعراء المغرب العربي، تعدّدت موضوعاته وكثرت مضامينه، فلم يأت الوصف عندهم غرضا ضمن أغراض أخرى، وإنّما أتى مقصودا لذاته في كثير من الأحيان، خصصوا له قصائد ومقطوعات استقصوا فيها جوانب الموصوف، وأبدعوا في تحسينه أو تقييحه، وقد ظلّ النظم في هذا الغرض في كثير من الأحيان وسيلة إلى إظهار البراعة وإبراز التفوّق.

لقد اتضح من خلال هذا التحليل أنّ شعراء هذا الفن لم يقفوا به عند اتجاه واحد، وإنّما نرى لهم فيه اتجاهات شتى.

وأوّل اتجاه يطالعنا هو تغني شعراء المغرب العربي بجمال الطبيعة في مدنهم، ذلك الجمال الذي يتمثل في وضاءة الفن الإلهي، فقد أشاعه الله في الأرض والسماء، وهيّأ المدارك للاستغراق فيه، والاستمتاع به، فمن كان ذا سمع، وذا بصر، وذا قلب وجده في كلّ منظر، وأحسّه في كلّ حالة لكون "الشعر العربي يهيم بمحاسن الطبيعة وألوانها الفاتنة، ويتصورها في العموم مادة من مواد الطرب ومحلى للزينة ومعرضا للحسن".[33]

وثاني اتجاه يتمثل في وصف مجالي الطبيعة في الأرض والسماء حيث تأنّق الشعراء في تصوير الرياض والأزهار والورود والبرق والسحاب والمطر والأنهار والبرك...، أي«العناية بالطبيعة الهادئة ممثلة في البحر الهائج، والريح الصرصر والشتاء القارس، والركام الجليدي، والنظام المطبق».[34]

و لم يفت هؤلاء الشعراء وهم يجولون في حدائق بلادهم وبساتينها أن يصوّروا ثمارها وفاكهتها التي تطلّ عليهم من فوق أشجارها بشتى ألوانها وأشكالها.

أمّا الاتجاه الثالث فيكمن في تصوير الطبيعة الصناعية المتمثلة في وصف قصور الأمراء والخلفاء والملوك.

ومع تعدد الاتجاهات لشعر الطبيعة في المغرب العربي، فإنّ هناك خصائص وسمات عامة تجمع بينها، فقد تجلى من خلال النماذج المقدمة أنّ الصورة الفنية تملأ جوانبه وتنتشر بين ثناياه، فقد عمد الباث إلى إبراز القضايا التي أراد التعبير عنها بواسطة الأدوات والأوجه البلاغية كالتشبيه والاستعارة والكناية والرمز وحتى الأسطورة لأنّ الشاعر في تناوله الطبيعة ليس ملزما بنوع شعري واحد، إذ قد يروم موضوعا محايدا، لكنّه يقرنه بالطبيعة أو يشبّهه بها كون شاعر الطبيعة يعيش في عالم من الإيماء والتلميح. «وللطبيعة خاصية غريبة، فهي تخاطب في لغة من الرموز والاستعارات والإيماءات، فهي لغة لا تكون وافية صريحة، ولا كاملة مفصلة».[35]

كما استعان الشعراء في رسم وتلوين الصور المستوحاة من الطبيعة ببعض المحسنات البديعية المعنوية واللفظية التي تسمو بالأسلوب إلى مداليل إيحائية بعيدة عن التقريرية (المباشرة)، واختاروا الألفاظ التي هي تعتبر مادة لتصوير الطبيعة وإبداعها في جمل وعبارات تخرج بطبيعتها وكأنها التصوير الموسيقي.

ونافلة القول، إنّ هذا الفنّ العربي وإن كان له عصر نهض فيه، واتسعت موضوعاته خلاله، « فإنّه ظلّ وثيق الصلة بالماضي، يتطور بقدر ويأخذ منه كلّ عصر بحظ».[36] وهكذا، فالطبيعة قد سحرت الألباب، وأسالت اللّعاب، فطرقها الشاعر المغربي من كلّ باب.

مراجع البحث وإحالاته:

1) الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب العربي, د.محمد مرتاض- الجزء الثاني- دار الأوطان ص482.
2) ينظر: الصورة في شعر أبي تمام، د. عبد القادر الرباعي، جامعة اليرموك، أربد- الأردن، ط1، 1980م
3) الخطاب الشعري، محمد مرتاض، ص 523.
4) النقد الأدبي، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، ط3، القاهرة، 1963م، ص 102.
5) هو الأمير أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن بن علي الكومي، ولد في بجاية غداة ولاية أبيه عليها (552-604هـ/1157-1209م)، وهو ليس شاعرا فحسب ولكنه من الحكام، ورجال الدولة أيضا، ومن القادة العسكريين.ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:أحمد بن محمد المقري التلمساني تح : إحسان عباس دار مصادر بيروت (د,ط)1338 هـ / 1968 م ج 4 ص 104 وما بعدها
6) ديوان الأمير أبي الربيع سليمان بن عبد الله الموحّد، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي وآخرين، نشر جامعة محمد الخامس بالرباط، د.ط، د.ت، ص 47.
7) ديوان ابن حمديس الصقلي، تح: إحسان عباس، دار صادر ، بيروت، 1379هـ/1960م، ص 546.
8) المصدر نفسه، ص 547.
9) أدب العرب، مارون عبّود، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1978-1979م، ص 246.
10) ديوان ابن حمديس، م.س، ص 547.
11) مسجور، ساكن وممتلئ معا. سجر الماء النهر: ملأه / سجر البحر: فاض.
12) ديوان ابن حمديس، م.س، ص 547.
13) نفسه، ص 547.
14) الصورة الأدبية، مصطفى ناصف، دار الأندلس، بيروت، الطبعة 3، 1983م، ص 5.
15) تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيّات، ط25، ص 336.
16) عنوان الأريب عمّا نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب، لمحمد النيفر، تونس سنة 1351هـ، ص 91.
17) الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب العربي، د. محمد مرتاض، م.س، ص 529.
18) نفسه، ص 529.
19) بجاية في حدائق الكتب، مولاي بلحميسي، مجلة الأصالة،عدد 19، سنة:4، مارس/ أفريل 1974م، ص105.
20) عنوان الدراية، الغبريني، م.س، ص 280.
21) نفسه، ص 281.
22) نفسه، ص 281.
23) نفسه، ص 282.

24) أبو الحسن بن رشيق، ولد بمدينة المحمّدية (المسيلة) بالجزائر سنة 390هـ، وبها تلقى علوم العربية، وكثيرا من المبادئ في الأدب والشعر، ثم انتقل إلى القيروان حيث ذاعت شهرته أكثر، وازداد ثقافة وتعمّقا في خطابه الشعري، وفي تجاربه الأدبية والنقدية إلى أن توفي بها سنة 456هـ.ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، 1-2، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ص 4.

25) الأبرق: غلظ فيه حجارة ورمل وطين مختلطة.

26) عنوان الأريب، محمد النيفر 1-53. الأدب في عصر بني حماد، د. أحمد بن محمد أبو رزاق، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1979م، ص 236.

27) ديوان ابن رشيق، تحقيق: محي الدين ديب، المكتبة العصرية، ط1، 1418هـ/1998م، ص 74.

28) نفسه، ص 50.

29) نفسه، ص 65.

30) نفسه، ص 30.

31) تاريخ الأدب في المغرب العربي، حنّا الفاخوري، بيروت، دار الجيل، الطبعة الأولى، 1996م، ص 240.

32) شعر الطبيعة في الأدب العربي، د. سيد نوفل، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، ص 310.

33) نفسه، ص 311.

34) نفسه، ص 312.

35) النقد الأدبي، أحمد أمين، م.س، ص 85.

36) شعر الطبيعة في الأدب العربي، سيد نوفل، م.س، ص 312.